الحق الذي لا مريه فيه أن الهزيمة - كحالة واقعية قد تصيب المجتمع المسلم كما تصيب غيرهم وفق نواميس الكون التي قدرها الخالق سبحانه لتسود بين البشر - لها أحكامها الشرعية كما لها قواعدها الحياتية التي اصطلح عليها العرف الإنساني منذ قديم الأزل
والمسلم بصفته الإنسانية إذا تخلى عن الأسباب التي تكفل له التميز عن غيره من البشر بمذاهبهم وأيدلوجياتهم الوضعية وتضمن له من ثم التفوق كان فى شأنه ما يمكن أن يكون مع غيره وفق موازين القوة المادية .. تلك الحقيقة عبر عنها بوضوح أحد أعظم قادة المسلمين فى أيام عزهم الأول وهو يوصى جنده قبيل إحدى المعارك أنكم إذا استويتم مع عدوكم فى المعاصي والذنوب تفوق عليكم بالعدة والعتاد .
وحينما تحدث الهزة فى المجتمع المسلم تؤدى الى الهزيمة وما يتبعها من أثار قاسية التي إما أن تقعد به ويتقهقر بها بعيدا فى نهاية الركب ومؤخرة الحضارات و أما أن يعمل على تفاديها ومواصلة الجهاد بتفادي المحطات التي تسببت فى حالة الهزيمة وأحدثت العثرة.. ولقد عرف النموذج الأمثل للدولة الإسلامية فى أيام قائدها الأول تطبيق واقعي لهذه النواميس الكونية .. فعندما خالف الجند أوامر قائد هم فى غزوة أحد كانت الهزيمة بما فيها من أثار مدمرة كادت تعصف بالكيان الإسلامي كله من قتل لخيرة الجند والقادة وذيوع الشائعات بأن محمدا قد قتل وطاشت الاتهامات وتبودلت حول أسباب الهزيمة .. وتكرر الموقف تارة أخرى في غزوة حنين حينما ظنت الآلاف التي خرجت في الجيش المسلم أن النصر حليفها وقالوا لن نهزم اليوم من قلة فكانت الهزيمة لان المعنى الذي أراد الله سبحانه أن يعلمه للمسلمين فى كل زمان ومكان أن النصر ليس بالعتاد والعدد فقط فى الحروب العقائدية وانما هو يتحقق بقدر اتصال القلوب بمنهج الله أولا ثم التماس الأسباب المادية في إعداد العدة
ولعل أهم سمة يتميز بها المجتمع الإسلامي حال الهزيمة هى استعلاءه بإيمانه وثقته فى نصر الله وشدة يقينه في رفعة منهج الله وبراءته مما قد يلحق بالمسلمين من هزيمة مصداقا لقول الله تعالى { أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم } ,إن الهزيمة كحالة واقعية مادية حينما تعرض بالصف الإسلامي لا ينبغى الاستسلام لها و النكول عن المنهج عياذا بالله لقوله تعالى { يا أيها الذين أمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين } .. إنما توجه الطاقات كلها والعزائم من أجل النهوض من العثرة والخروج سريعا من حالة الهزيمة واعتماد سبل أخرى واستراتيجيات غير التي أدت الى الهزيمة للنهوض ومواصلة السير لقوله تعالى { يأيها الذين أمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير }
وكما أجاز علماء الأصول تغير الفتوى بتغير المناط واختلاف البيئة والزمان وأجازوا السير بسير الأضعف فى بعض الأحيان فان أسلوب الكتيبة المسلمة في مواجهة الواقع الذي تعيشه يتغير بتغير الظروف دون أن يعنى ذلك التنازل عن الدين كمنهج حياة وثوابته العقائدية وهو ما اصطلح عليه بعدم إنكار معلوم من الدين بالضرورة ..فحالة الاستضعاف أيضا لها ملامحها الخاصة التي قد تفرض أحكاما أخرى على النحو الذي تعامل به النبي محمد صلى الله عليه وسلم فبون بين حركته في مكة قبل الهجرة وحركته بعدها .. وبون شاسع أيضا عن حركته قبل فتح مكة وقبوله صلح الحديبية وبعد أن منّ الله عليه بفتحها وحين قبل محمد كقائد وزعيم صلى الله عليه وسلم شروط الحديبية لم يرض الدنية

فى دينه لكنها حالة يتحتم على الصف المسلم أن يحسن التعامل معها والمرور منها بأقل الخسارات والتكاليف { واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب }

أهم ملامح الهزيمة وأثارها المرضية :

إن الهزيمة على النحو الذي أسلفنا قد تكون حالة زمنية مؤقتة لا يلبث المجتمع المسلم أن يتجاوزها ويسعى سعيا حثيثا الى تحصيل أسباب النصر فينهيها بكسب الموقعة التي تليها وهنا تكون الهزيمة حالة صحية ودليل على حيوية المجتمع المسلم وقدرته على التفاعل وتخطى أزماته وتنقية صفوفه من معوقات النصر ..

ولكنها في فروض أخرى تطول الهزيمة وتستحيل حالة معنوية تكثر فيها الأسباب المعطلة وترتفع فيها الأصوات المثبطة وتتقدم زعامات غير مؤهلة وتتبعثر القدرات والطاقات فتضحي غير مؤثرة ويعجب كل ذي رأى برأيه فتضحى الهزيمة حالة مرضية وأهم ملامحها :-

1- البعد عن منهج الله وتحكيم شرعه فيما شجر بين أفراده من نزاعات :-

لقد حدد الله سبحانه الأصول المرعية فى ضرورة التحاكم إليه والى رسوله صلى الله عليه وسلم في كل ما يعرض للكتيبة المسلمة ويثور بين أفرادها من أزمات واختلافات لقوله تعالى { يأيها الذين أمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } ولقوله تعالى { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمونك فيما شجر بينهم }وقوله صلى الله عليه وسلم { تركت فيكم ما إن تمسكتم بها لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتي }

2- إعجاب كل ذي رأى برأيه : إذا ضعف الوازع الديني فلا شك أن الذي يترتب على ذلك بالتالي هو تهاتر الإحساس بالمراقبة لقوله سبحانه { أ فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت } وقديما قال أحد السلف إياك أن يكون الله أهون الناظرين إليك ..فإذا ضعف الشعور بالمراقبة فالنتيجة المنطقية عدم السعي الى تحكيم شرعه فى المعاملات وطريقة الخروج من المحن وفض المنازعات الفقهية والفكرية بين أنصار الفكرة الإسلامية وتعاظم الرأي البشرى واعتزاز كل صاحب رأى برأيه وانتصاره له وعدم التحلي بأدب الاختلاف كل ذلك على حساب وحدة الصف كأهم سبب للنصر وباعث على تفجير الطاقات الكامنة والقدرة على قبول التحدي مع الحضارات الأخرى المتنافسة

3- التباغض و التدابر :

لعل الحكمة التي أرادها الله أن يجعلها فى متناول الأجيال المتعاقبة من الأمة الإسلامية في كل عصر ومصر من هجرة النبي محمد الى مكة وسعيه الى تأسيس الدولة الإسلامية أن اللبنة الأولى التي وضعها في طريق بناء هذه الدولة الشامخة القوية هى الحب في الله والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله فمن أعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان .. وهذه الدعامة اللازمة لكل جماعة تسعى الى تحكيم شرع الله في الأرض لن تتحقق إلا بتقديم شرع الله في المنازعات والاختلاف وأن توحدها مرتهن بوجود أنماط بشرية تتأسى بأبي بكر و بلال فهذا يضع خده تحت نعل أخيه والآخر يذرف دمعا ثخينا متسامحا ..والنقيض لذلك أن يتدابر أهل القبلة ويتقاطعوا بل ويتلاعنوا وتشيع الاتهامات بين أنصار الفكرة الواحدة حتى تصيب العرض والدين فيخلق هذا المناخ الكريه تباغض أهل القبلة لبعضهم البعض حتى وان كانوا قادة وزعامات لحركات تدعى العمل على تحكيم شرع الله فإذا هم يبدلون نعمة الله كفرا .. فالذين يقدرون على تحقيق النصر هم قوم يأتى الله بهم صفتهم الأولى { يحبهم ويحبونه } فالحب شعارهم فذاك سلاح ماض وفعال في تحقيق النصر لن تستطيع

أية جماعة أن تتحصل عليه من معسكر شرقي أو غربي { لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم } كما وأن الذين يقدرون على تحقيق النصر يتميزون بكونهم { أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين } , إن شيوع الغيبة والنميمة بين جنود الصحوة الإسلامية المعاصرة من أهم أسباب تعثرها وعجزها عن بلوغ مأربها

4- تعددية الجماعات واختلاف الرؤى :

يقول بعض مشايخنا إن تعددية الجماعات وكثرتها ظاهرة صحية تدل على حيوية الصحوة الإسلامية وضرب لذلك مثلا بالبناء الشاهق متعدد الطوابق والنوافذ ليس له غير باب واحد فهذا هو الإسلام العظيم الشاهق وهذه هى الجماعات والجمعيات والمنتديات الإسلامية .. قد يكون مثل هذا التصور صحيحا لو كانت التعددية باعثة على تسخير الطاقات والإمكانات وقادرة على بلوغ الاستفادة بالرأي الأرجح وتوافر ما يكمن أن يعبر عنه بأدب الاختلاف ويكون الرأي صوابا يحتمل الخطأ على النحو الذي سلف فى أيام عز الإسلام وصحوته أما إذا كانت التعددية سبب للفرقة وتنابذ الآراء وتبادل الاتهامات وزعم كل هيئة أو حركة احتكارها حق الحديث باسم الإسلام أو التيار الإسلامي عمومه فهنا تكمن علة الداء ويكون فى كثرة مثل هذه الحركات تكريس لواقع مر كالعلقم إذ تعجز عن التواصل فيما بينها والتعاون على البر والتقوى وتوجيه قدراتها لما فيه خير البلاد والعباد

5- تفشى الذنوب وشيوع الخطايا :

قدمنا ما حملته الينا كتب السير والتراجم من قولة شامخة لقائد مسلم عظيم وهو يوصى أجناده عليكم بتقوى الله فأنكم إذا استويتم مع عدوكم فى الذنوب تفوق عليكم بالعدة والعتاد

إن الحركة الإسلامية مطالبة اليوم وهى تبحث عن أسباب هزيمتها وطول نكستها أن تتوب الى الله من الذنوب والمعاصي قادة وأجنادا فرادى وجماعات فالذنب قد يقترفه الفرد تتعطل به مسيرة الأمة .. ولاينبغى التهوين من هذا السبب كمعطل للأمة ومعرقل لها عن بلوغ النصر فإيانا وتحقير الذنوب وقديما قال الشاعر :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى .. لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وانه مما تواترت الروايات على ذكره من مناقب السلطان المسلم قطز انه لما أراد تجميع الأمة لمواجهة التتار استنقذ العالم المجاهد العز بن عبد السلام وطلب منه تعبئة جهود وطاقات الرعية من أجل إعلان الجهاد ولكن الشيخ العلامة بن عبد السلام لم يتفاعل مع الرغبات والأماني العاطفية فقط وانما طلب من القائد قطز أن يتوجه على رأس حملة الى الشوارع والطرقات التي اشتهر فيها محلات الخمر وبيوتات الرذيلة لتحطيم قوارير الخمر وغلق بيوتات الدعارة

إن العز بن عبد السلام يريد أن يقول قولته ويدلى بشهادته لتبقى خالدة حتى تقوم الساعة إن الجماعة التي ترفع راية التوحيد وتزعم ريادتها فى معاركها عليها أولا أن تستحضر أسباب النصر حتى يتحقق لها فليس بأمانيكم ..ان الله لم يعط وعودا بالنصر والتمكين لكل من يزعم الإيمان أو يرفع شعار الإسلام فللنصر شرائطه وللتمكين ضوابطه{ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم }

6- الجمود والتقليد والمحاكاة وتعطيل الاجتهاد :

إن أهم ما يميز الإسلام عن غيره من الشرائع اتصافه بالتجريد والعمومية بأن جعله الله صالحا لكل زمان بما حواه القرأن من مبادئ عامة تستطيع الأمة أن تستلهم معانيها وبيان العلة فيها من أسباب النزول ومما تقدمه السنة كمصدر هام من مصادر التشريع من تفسير

للآيات والأحكام القرآنية .. غير أن أشد ما يمكن أن يبتلى به جيل مهزوم أن يقعد عن متابعة التطور الحاصل من حوله فى العلوم الحديثة ووسائل التقنية الحديثة وتحت شعار الاتباع تتعطل فرضية الاجتهاد وفق الضوابط والأطر التى ارتضاها المشرع الإلهي سبحانه ورخص فيها للأمة أن تفجر طاقاتها وتعطى الفرصة لكفاءاتها عبر هذا الرافد الهام من روافد التشريع الإسلامي فتكون السمة الغالبة لكل جيل مهزوم عاجز عن مراجعة أسباب الهزيمة غير مدرك لمغزاها التقليد والمحاكاة والتمسك بوجه وحيد فى تأويل النصوص قد يتغير مناطه فيستحيل مرجوحا بفعل تغير الواقع ..وتشيع فى مثل هذا المجتمع فتاوى مهزومة تبعث على الانعزال وترفض التواصل مع العلوم الانسانية النافعة للبشرية ويدعوا بعضها بعضها التحريم التعليم ..ويفتى بعضها الاخر بحرمة العمل فى الوظائف الحكومية وغير ذلك مما عمت به البلوى فتعد غاية اهتمامات البعض من أبناء هذا الجيل المهزوم مثل هذه القضايا الفرعية على حساب القضايا الاستراتيجية والمصيرية ..وصدق الشاعر :

كل فى لهيب القول عنترة .. وكل فى لهيب الفعل كالوتد

فى مثل هذه الاجواء المحبطة التى تعكس مرارة الهزيمة يغلب التقييم الظاهرى للمواقف والاحداث وتسود الشعارات دونما تقديم البدائل المنتجة وتغيب الدلالات التى يمكن استباطها من معالجة التاريخ الاسلامى لمثلها وما شابهها من واقعات فلقد حملت كتب السيرة مالحق بالجيش المسلم فى غزوة مؤتة من هزة نتجت عن مقتل القواد الثلاثة الذين كلفهم النبى محمد بقيادة الجيش ومع غياب النص تقدم خالد بن الوليد لحمل اللواء ونظم صفوف جيشه واتخذ قراره الحاسم بالانسحاب ولم يأبه لدعاوى ارتفعت ضده تتهمه بالتخاذل هاتفة فى وجهه الفّرار غير أن التوجيه النبوى جاء حاسما بقوله بل هم الكرّار ان شاء الله

أفلا تتدبرون !!

_____

آه من طول الطريق وقلة الزاد